

كرونولوجيا طقوس استنزال المطر، تأويل، أبعاد ورموز

Ritual Rain Extratio, interpreting, Dimension and symbols

صبرينة بوقفة¹*¹ جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة (الجزائر)، Sabrina.bougoufa@univ-tebessa.dz

تاريخ الاستلام: 2024-02-03 تاريخ القبول: 2024-02-18 تاريخ النشر: 2024-06-01

مُلَخِّصُ الْبَحْثِ

لطالما كانت الطبيعة الملهم الأول للإنسان البدائي أو الإنسان الأول والذي حاول بشتى الطرق فهمها خوفا تارة درء لأذاها وتعبدًا تارة أخرى، لذلك كان السحر والدين على حد سواء ثنائيتان توأمتان استعان بهما هذا الأخير لفهم حياته وتيسيرها في الوقت الذي غاب فيه التفسير العلمي الدقيق.

وعلى هذا الأساس تهدف هذه الدراسة البحثية إلى الكشف عن مواطن الدين البدائي الذي تحول مع الوقت إلى مجموعة من الممارسات العقائدية، وطقوس استنزال المطر موضوع الدراسة كانت ولا زالت النموذج الأول الذي لا بد من البحث عن أصوله التاريخية لفهم رموزها وأبعاد ممارساتها وتأويلاتها.

كلمات مفتاحية: طقوس استنزال المطر، التأويل، الرموز، الأبعاد التاريخية، كرونولوجيا، الحضارات.

Abstract:

Nature has always been the primary inspiration for primitive man or the first man, who tried in various ways to understand it, sometimes out of fear to ward off its ears and worshipping excitement at other times. Therefore, magic and science were both twin dualities that the latter used to understand and facilitate his life at a time when accurate scientific explanation was absent, and on this basis.

This research study aims to reveal the aspects of primitive religion that transformed over time into a group of doctrinal practices, and the rain-dropping rituals that are the subject of the study were and still are the first model whose

historical origins must be researched to understand its symbols and the dimensions of its practices and interpretations.

Keywords: Rainfall rituals; interpretation; symbols; historical dimensions; chronology; civilizations.

1. مقدمة:

استنزال المطر أو ما يعرف بـ "غونجا" أو "تاغنجا" أو غيرها من المسميات التي تصب في نفس مضمار شعائر الاستقساء، وتعد هذه الممارسات أصيلة الحضارات ومولودها البكر على مر العصور متعلقة في الأساس بالخصب والزراعة، وتعود أصولها التاريخية إلى العصر البدائي الذي تعرف فيه الإنسان الأول على الأرض والزراعة وأوجد خلالها مجموعة من الطقوس السحرية التي ساعدته في إيجاد وسيلة صحيحة لديمومة مصدر عيشه، فكانت المرأة الأنثى ممارسته هذا الطقس بصفة خاصة، وتتمثل إشكالية البحث فيما يلي:

ماهي الحدود المفاهيمية لطقوس استنزال المطر؟

كيف فسر العلماء ممارسة هذه الطقوس نفسيا وإثنولوجيا؟

هل هناك نقاط تشابه واختلاف بين هذه الطقوس بين مختلف الحضارات، وماهي التأويلات والدلالات الخاصة بطقس استنزال المطر؟

وتكمن أهداف البحث في الكشف عن مواطن التشابه والاختلاف في ممارسة هذا الطقس وبين مختلف الحضارات البابلية، الرومانية، الأمازيغ وغيرهم من الشعوب كما تهدف أيضا إلى البحث عن الجذور التاريخية لمثل هذه الممارسات وأصولها المرتبطة أساسا بمختلف الديانات البدائية أما عن منهجية البحث فاعتمدنا خطة بحث منهجية تأرجحت بين الجانب النظري الذي سنتناول فيه تعريفا دقيقا لطقوس استنزال المطر وجذورها التاريخية ثم جانبا آخر تطبيقيا سيتناول طقوس استنزال المطر وممارستها في مختلف الحضارات، وتأويلات ممارساتها، ثم خاتمة تتمثل في حوصلة لأهم النتائج المتوصل إليها في البحث والدراسة.

2. ماهية طقوس استنزال المطر:

"غونجا" أو "بوغنجا" أو "تاغنجا" أو "تاسليت أو نزار" أو ما يسمى أيضا "أنزار"، كلها مسميات لطقس لطالما ارتبطت بالأمازيغ على وجه الخصوص، لكنها تعود بجذورها إلى غابر الزمن السحيق، ولطالما عقد القران بين هذه الممارسات وما يسمى أيضا بـ: "الزردة"، هذه الأخيرة التي تعد من أهم وأكثر التجمعات الشعبية شيوعا في وقت سابق وفي الوقت اللاحق بين الأفراد، وهي عبارة عن احتفال جماعي يؤديه أفراد من سلالة ولي صالح معين تقوم في الأساس على التجمع الشعبي والإطعام الجماعي هدفها الأساسي التكامل الاجتماعي والتبرك وإقامة الاحتفالات.

وإذا عدنا للمعنى اللغوي لمصطلح "الزردة" كما ورد في لسان العرب "لان منظور الذي رأى أن المصطلح مصدر مشتق من الفعل الثلاثي "زرد" و "زرد الشيء" واللقمة وازدرد زردا ابتلعه يقول أبو عبيد سرطن الطعام زردته وازدردته والازدرد الابتلاع»⁽¹⁾.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الزردة هي عبارة عن «احتفال شعبي تقوم به مجموعة بشرية في مكان محدد هو الساحة المحيطة بالضريح، وفي زمن محدد متفق عليه بين المجموعة، ويدوم الاحتفال يومين أو ثلاثة أيام وفيه يقام الطقس الاحتفالي حيث تسود فيه المأكلة والمشارب وتقام فيه الاستعراضات كاللباس والرقص والفروسية (...) وبمرور الزمن وبفعل التوارث أصبحت الزردة تمثل احتفالا عقائديا ممزوجا بأنشطة اقتصادية واجتماعية تقوم به القبيلة أو العشيرة الواحدة التي تربطها قرابة الدم وتشترك مع بعضها في الانساب إلى الجد الأول وهو الولي الصالح الذي تقام ف يه حضرته به، وله كل الأنشطة والاحتفالات والطقوس»⁽²⁾.

انطلاقا مما سبق يمكن القول أن الزردة لا تخرج على نطاق الجانب الاجتماعي والاقتصادي في التعارف بين أبناء القبيلة أو العرش أولا، وحتى بين الشعوب مثلما يحدث في زردة "سيدي عبيد الشريف" التي تقام في منطقة "سطح القنتيس" الواقعة جنوب تبسة حيث يحج إلى الضريح أبناء المنطقة إضافة إلى شعب الجنوب الغربي للبلاد التونسية، و«يضم هذا الفضاء منطقتين طبيعيتين متكاملتين هما الهضاب العليا والسباسب من الجهة الشمالية والواحات والشطوط التي تلتحم بالمجال

الصحراوي من الجنوب، يتكون هذا الفضاء من الجانب الجزائري من: تبسة وبكارية والماء الأبيض وصفصاف الوسرى وبئر العاتر وقتيس (...). أما في الجانب التونسي فيشمل توزر ونقطة ووحدات تمغزة وميداس والشبيكة إضافة إلى المدن المنجمية خصوصا الرديف والملوي»⁽³⁾.

أما عن الوقت المخصص للزردة فهي تقام في فصلين بالتحديد، أحدهما في الخريف (الحرث) والآخر متعلق بالحصاد (فصل الربيع) والغرض من ذلك «التقرب من الولي الصالح ليغيثهم بالأمطار تسهيلا للحرث أو حفاظا على الغلة (الصابة) ويقام الاحتفال في فضاء لا متناه كالصحراء أو الخلاء أو على سفح جبل ويشارك فيه الجميع بلا ضوابط جنسية أو عمرية أو طبقية، وهم جميعا يمارسون أنشطة مختلفة اجتماعية كالتزاور وإطعام الوفود والركض على الخيل، وأنشطة اقتصادية كالبيوعات والشرايات»⁽⁴⁾.

وانطلاقا مما سبق وإلى جانب الأغراض الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والنفسية التي تؤديها الزردة، لا يمكن إنكار الدور البارز الذي تؤديه "المرأة" خلال هذا التجمع المهم، خاصة أنها تمثل العنصر الفعال في إدارة بعض الممارسات العقائدية والمتعلقة في الأساس بـ "استئزال المطر" فبعد زيارة ضريح الولي الصالح "سيدي عبيد الشريف" والدعاء والتضرع له بتحقيق المطلوب (الزواج، الإنجاب، إنجاب الذكور وغيرها من الأماني)، تقوم النسوة باللباس خشبة قماشاً أخضر اللون، كما يقمن بالتطواف حول البيوت لجمع ما تيسر من النقود لتحضير أشهى الأطباق الشعبية وتوزيعها على الفقراء مع ترديد ما يلي:

القائمة لبست لخصر

مشت تبختر

يا ربي أعطينا المطر

والقائمة لبست سخاب

يا ربي تعطيني سخاب

وقد ذكر الباحث "روني باسيط" في كتابه "أبحاث في دين الأمازيغ" نفس الطقس ويقام في تلمسان الواقعة في الغرب الجزائري، حيث يقوم سكان المنطقة بإلباس خشبة بخرق «بطريقة يجعل منها كدمية تمثل خطيبة أو عروسة تسمى غونجا، ويتم تطواقيها بأبهة على مقابر الأولياء مع ترديد الأهازيج التالية:

غونجا كشفت رأسها

يا ربي ستبلل أقرط أذنيها

السنبلة عطشت

امنحها تشرب يا سيدنا»⁽⁵⁾.

ومن الملاحظ أن هذه الممارسات لا تختلف عن بعضها البعض سوى في بعض التفاصيل الصغيرة، وتعود الأصول التاريخية لمثل هذه الممارسات إلى العصر البدائي الذي حاول فيه الإنسان التعرف على الطبيعة، فغنى ورقص وتصارع مع مظاهرها خوفا تارة ومحاوله لفهمها تارة أخرى، كما تعرف على الأرض واهتدى إلى الزراعة، وإلى جانب كل هذا أوجد مجموعة من الطقوس السحرية التي كانت له بمثابة السند في إيجاد وسيلة صحيحة لديمومة مصدر عيشه، فكانت المرأة ممارسة هذا الطقس بامتياز، باعتبارها رمزا للخصوبة واستمرار النسل، ويمكن تمثيل ذلك بالخطاطة التالية:

المرأة = أنثى، خصوبة، الأرض، استمرار النسل = حياة

المطر = ماء، خصوبة، سماء، استمرار الحياة = حياة

أما في منطقة "ثليجان" الواقعة بدائرة الشريعة ولاية تبسة تذكر الراوية أنه في حالة ندرة المطر أو العقم أو السقم تتجمع نساء القرية أمام شجرة ضخمة من أشجار التوت المثمرة المتواجدة بجانب ضريح الولي "حمد" بن موسى البهلول ويتضرعون أمامها بالدعاء «يا التوتة يا الحنانة كي تصب المطر وتشبع النعاج نديرولك عصيدة»، وتذكر الراوية أنه وبعد هطول المطر وارتواء الحيوان والأرض يقوم سكان القرية بتحضير العصيدة والحناء والبخور ووضعها على أغصان شجرة التوت المباركة -

حسب رأيهم- وأردفت الراوية قولها أنه يمنع معنا باتا أخذ صورة لهذه الشجرة ومن تخطى الحدود يلقي العذاب بإصابته بوعكة صحية شديدة، تقول في ذلك: «مرة كاين اللي صور حذاها مرض وكاين اللي صوروا حذاها زعمة مانوا حتى محوا تصاور باش رتاحوا، المهم واش وعد يديها حلوة ولا بخور ولا عصيدة ولا حنة، ولحد الآن يوعدها ويدولها الوعدة في الربيع»⁽⁶⁾.

وكما ذكرنا سابقا تقع شجرة التوتة المقدسة في ريف ثليجان الواقعة على بعد 17 كلم من منطقة الشريعة ولاية تبسة، وهي من الأشجار المباركة والمقدسة في المنطقة، فالذاكرة الجماعية الشعبية والمخيال الشعبي لسكان المنطقة لا زال متعايشا مع ثقافة ومعتقدات الأجداد، وقد اكتسبت هذه الأخيرة قدسيته من قدسية الولي الصالح "سيدي حمد" الذي ترك ملذات الدنيا ليتعبد الله وحده لا شريك له وليقتات من ثمارها ولتقيه من حرارة الشمس الحارقة، خاصة أن شجرة التوت وكما هو معروف من الأشجار التي تمنح الظل والخير والعطاء بامتدادها في السماء وبأوراقها الخضراء التي تحجب عنا حرارة الشمس وبثمارها الحلوة الصغيرة الحجم ذات الألوان الزاهية المتنوعة بين الأبيض والأحمر القائم.

إن المشهد السابق الذكر الذي يجسده أهالي منطقة ثليجان في أوائل شهر أفريل وماي خاصة أي في فصل الربيع «هو امتداد طبيعي لطقوس الخصب البشري وأعياده التي نجدها عند الفراعنة بشم النسيم أو عند الفرس "بالنيروز" وكما أن للفن صوره وأشكاله أيضا ووظيفته الاجتماعية وبحكم أن التراث الشعبي علم في الإنسانية ومن المعارف المكملة لعلم التاريخ والآثار وكلها تشكل حلقة واحدة في حياة الإنسان، لذلك فإن دراسة الثقافة في أبعادها الروحية اللامادية يعد عنصرا إضافة لكل جوانب التاريخ الإنساني، وإذا بحثنا في عملية حفر أنثروبولوجي لمصادر الحكايات فإننا نجدها تنبع من رافدمشريقي واحد، فمنطقة الشرق الأدنى القديم من الهضبة الإيرانية وشبه الجزيرة العربية، وبلاد الرافدين وبلاد الشام، فهذه الطقوس والاحتفالات الضاربة في أعماق التاريخ كان رافدها ومنبع ذلك الشرق الساحر، فالآلهة كانت مشرقية والإنسان الأول وبواكير النهضة الإنسانية كانت

هناك، حيث تأسست أولى التجمعات البشرية للاستقرار والانتاج والمعرفة، فالدين ووازعه كانت أرض الشرق مهدا له، والمعتقد البشري بكل تجلياته وما شابه من أسطورة وخرافة نسجها خيال ذلك الإنسان في رحلة إيمانه وبحته في حياته كالإنسان»⁽⁷⁾.

وعباداة الأشجار وتقديسها ديانة اعتنقها الإنسان البدائي تحت مسمى "الأرواحية" مفادها كل شيء مسكون بالروح، وهي تعبير فكري عن حالة البداءة البشرية، والأرواحية في المعنى الضيق للكلمة هي علم التصورات الروحية «ويميز المرء أبيضاء الإحيائية وهي علم حياتية الطبيعة التي تبدو لنا غير حية، ويدخل في هذا الإطار تقديس الحيوانات وعبادة الأجداد»⁽⁸⁾.

ولعل ظهور هذا المذهب في العصر البدائي لا يرجع إلى تقديس مظاهر الطبيعة خوفا ورهبة بل أيضا لما توفره له من أمن في الكهوف والمغارات والأشجار وعلى ضفاف الأنهار، ويعود سر هذا التقديس إلى أن الطبيعة تضمن له الغذاء والحماية من تقلبات الطقس تارة وخطر الحيوانات الضارية تارة أخرى.

أما عن أصولها التاريخية فيرى "سبنسر" (Sepencer) (1820-1903) أن هذه الديانة نشأت في بداياتها بتقديس أرواح زعماء راحلين ثم تحولت هذه الأرواح إلى آلهة تعبد إلى أن جاء (تايلر) (Taylor) وطور هذه النظرية ورأى أن عقلية الإنسان الأول (البدائي) ومخيلته كشأن الأطفال الصغار شديدة التأثر فيما يشاهدونه ويسمعونه، فأخذ هذا المتوحش على عاتقه عبادة كل شيء، فكر فيه تحت الأرض أو فوقها «وكل شيء بين الأرض والسماء وكل شيء وفي السماوات وتارة يعبد الشيء كأن به حياة وفاعلية وتارة أخرى يعبد لا لذاته ولكن بسبب الروح أو النفس الحالة به»⁽⁹⁾.

وبذلك فقد اختلفت آراء الباحثين حول مذهب الأرواحية، فها هو العالم "أدوارد تايلور" أخذ على عاتقه تحديد مفهوم هذه الديانة، ورأى أن خيال الإنسان البدائي بسيط إلى حد السذاجة ذلك لتأثره بكل ما يراه، فعبد مختلف مظاهر الطبيعة من أرض وشمس وقمر وسماء وأنهار ونجوم

وحيوانات، ورأى أن هذه الأشياء لا تعبد لذاتها وإنما بسبب الروح التي تسكنها، وتبقى كل هذه الممارسات العقائدية والعبادات أساسا لدرء أذى أرواح الآلهة التي خلفتها خيلته الصغيرة تارة، أو التقرب منها لنيل رضاها تارة أخرى.

أما في العصر الجاهلي فقد اعتقد الجاهليون أيضا أن الأرواح تحل في الأشجار أيضا فنظروا إليها نظرة تقديس ويعرضون عن إلحاق الأذى بها أو قطعها خوفا من انتقام الروح التي حلت فيها وكانوا يقدمون لها القرابين وينذرون النذور ويتخذون مواضعها حرما مقدسا يحجون إليه في بعض الأحيان»⁽¹⁰⁾.

وإذا عدنا إلى طقوس استئزال المطر في منطقة العوينات الواقعة شمال ولاية تبسة تقوم عجوز مجتمعة مع بعض نساء القرية بتزيين ملعقة كبيرة من الخشب بأبهى الألوان الزاهية خاصة الخضراء منها، وبعد الطواف حول ضريح الولي الصالح، تردد النسوة الأهازيج التالية باللهجة الشاوية:

أغنجا يترار

أربي أو شانغ أمان

وتعني المعلقة تتحرك وتلعب

يا ربي امنحنا الأمطار.

إن الباحث في الجذور التاريخية لمثل هذه الممارسات يستكشف الأصول الصحيحة لها، حيث لا تؤدي اعتبارا وإنما لأغراض متعلقة أساسا بديانات بدائية اعتقد الإنسان البدائي بوجودها، فالغرض من تحريك المعلقة يمينا ويسارا «هو تحريك الهواء والغبار، مما يؤدي إلى تشكل الغيوم وسقوط الأمطار خصوصا أن المرأة التي تؤدي هذا والغيوم والأمطار والمرأة كلها عناصر خصب»⁽¹¹⁾.

ومن الملاحظ أن هذه الممارسات لا تختلف عن سابقتها كيف لا وهي سليلة أساطير وحكايات غابرة في الزمن السحيق ابتدعها الإنسان الأول محاولا فهم الطبيعة والتقرب منها بمختلف الأشكال، فلفظة "غونجا" في الثقافة الأمازيغية تعني "المعلقة"، حيث يقوم سكان المنطقة بتزيينها كعروس في

ليلة عرسها بمختلف الأقمشة ذات الألوان الزاهية وتعود أصول هذه الممارسات إلى أسطورة عرفها المجتمع الأمازيغي واعتقد بحقيقتها، وتحدث عن «فتاة جميلة أعجب بها إله المطر "أنزار" أو "امتزار"، لكن رفضها الزواج منه جعله يعاقبها بحبس المطر عن القرية التي تعيش فيها حتى اشتد الجفاف ولم يجد أهلها من مناص إلا بتقديم الفتاة كعروس للإله وبالتالي رفعت اللعنة عنهم بعودة المياه إلى الأراضي وبالتالي عادت معها الحياة مجددا»⁽¹²⁾.

وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الشعب والمجتمع الأمازيغي شأنه شأن شعوب الرومان واليونان الذين آمنوا بتعدد الآلهة وأسسوا أساطير حولها، وفي الوقت الذي فقدت فيه وظيفتها الدينية تحولت إلى حكايات عجيبة اختلف الرواة في نسج خيوط أحداثها.

ومن جهة أخرى يمكن القول أن هذه الطقوس تمثل جانبا من جوانب السحر التشاكلي الذي يجعل الشبيه ينتج التشبيه، فالمرأة التي تحمل رمز الخصوبة والنماء والحياة هي من تمثل هذا الطقس لاستنزال المطر الذي يعد رمزا لاستمرار الحياة.

أما في منطقة "الشريعة" الواقعة جنوب ولاية تبسة فبعد الاجتماع أمام ضريح الولي الصالح والدعاء والتقرب له، تقوم النسوة بنفس الطقوس السابقة تفرجا بإلباس خشبة قطعة من القماش ذات اللون الأخضر مع ترديد الأهازيج التالية:

قايمتنا فوق الدار

يا ربي أعطينا الأمطار

قايمة يا شهلولة

إن شاء الله تروحي مبلولة

قايمتنا فوق البو

يا ربي أعطينا النو

قايمة يا قايمة

إن شاء الله تروحي عايمة

القائمة لبست لخضر

يا ربي أعطينا المطر

صب يا سحاب صب

النعجة طالبة الشرب.

وتحمل هذه الأهازيج بين سطورها بؤرة من الدلالات التأويلية المتعلقة بشائية الواقع والخيال، إنها ترحل بنا إلى عوالم عجائية أنثوية لا متناهية خصوصا أن ممارسة هذا الطقس من جنس أنثى الكائن الناطق الأكثر خضوعا للتقاليد والأعراف والعادات أو للموروث الثقافي بصفة عامة.

وربما إن المتمعن في هذه الأهازيج بدقة يلاحظ أن المرأة تحاول بين سطورها نقل صورة لنا عن إيكولوجية المان الشبه الصحراوي في منطقة تبسة، وذلك بامتطائها صغير الناقة أولا وصعودها أعلى أسطح البيوت (الأحواش سابقا) والتي تتميز ببنائها البسيط وبأسقفها قليلة الارتفاع مما يمكن المرأة من الصعود عاليا (فوق الحيوان أو البيت) تذرعا إلى المولى لنزول المطر وربما وهي تتزعم بهذه المقاطع تتيح لنا فرصة للكشف عن نمط معيشتها البسيط خاصة في القرى والمداشر وعن وضعيتها وممارساتها اليومية سواء داخل البيت أو خارجه، أما إذا انتقلنا إلى تأويلية هذه الممارسات فلطالما كانت المرأة لا زالت في أدبنا العربي سواء بشقيه الشرقي والشمالي رمزا للخصوبة واستمرار للحياة خصوصا أنها عنصر فعال في مجتمعنا الشعبي، ومن هذا المنطلق يمكن لنا أن نربط بين ثالث (المرأة، الاخضرار والناقة) وكلها عناصر خصب وسبب لاستمرار النوع البشري والطبيعي والحيوان، فإذا ما قارنا المرأة بعناصر الطبيعة (الماء) من زاوية أنها عنصر لاستمرار الحياة وحافطة للنسل من الانقراض، ولطالما كان الماء ولا زال أساسا للحياة وحافطة للنسل من الانقراض، ولطالما كان الماء ولا زال أساسا للحياة لقوله تعالى: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء/30]، والعلاقة الجامعة بينهما هو أن الماء العنصر الفاعل في عملية الإخصاب سواء بالنسبة للمرأة أو الأرض، فالأولى

يكون ماء الرجل أو (المني) السبب في عملية التخصيب والإنجاب، والثانية أيضا (الأرض) فالماء هو السبب في خصوبة الأرض واخضرارها وعادة ما ارتبط هذا اللون في أدبنا العربي بالطبيعة والرييح والنمو والشباب، كما ارتبط لدى «قدامى الصين بالأنوثة بعكس اللون الأحمر ارتبط عندهم بالذكرى ولذلك كان هذا اللون عندهم يمثل حنان الأنثى يدل على المعرفة والعدالة»⁽¹³⁾. كما ارتبط هذا اللون عند اليهود بالعممة والظلام.

لقد كانت هذه الأهازيج مرآة عاكسة بصدق وأمانة في التعرف على حياة وقيم المجتمع الشعبي في منطقة تبسة وتقاليد وعاداته وأعرافه المعيشية من جهة، ورافدا مهما في اكتشاف سماته والغوص في خصوصيتها للوصول إلى امتداداتها الانتمائية لحضارات انبثقت من عمق الزمن السحيق من جهة أخرى، ونجد نفس الممارسات في منطقة "أم علي" التابعة إقليميا لمنطقة تبسة، فبعد جمع المؤن المتعلقة بالزردة يطلب الرجال من الأطفال ترديد الأهازيج التالية:

«الزريعة تحت الطوب

حن علينا يا المطلوب

يا النور لميمتي

صبيلى على قطايي

قطاية الذهب»⁽¹⁴⁾.

ولا تختلف هذه الممارسات العقائدية في الجزائر وفي تبسة على وجه الخصوص عن نظيرتها من الدول، فعلى سبيل المثال في الدولة الشقيقة "تونس" تقوم عجوز طاعنة في السن بالباس عمودين متعاكسين من الخشب بقطع قماش زاهية الألوان ثم يتم تطوافها كعروس بين الأحياء والقرى مع ترديد أهازيج كما يلي:

أملك طانغو يا الأولاد راسها في الواد

أملك طانغو يا نساء بالبازين والحساء

أملك طنغو سيفايها طلبت ربي ما يخبيها
يا الله وقرين قول بالله وصبح مبلولة
يا بركة جامع المسير صبح كل غدیر سبیل
يا الله وعجيلة تسنى يا الله وتروح بكري
الزريعة تحت الطوب حز عليها يا المطلوب
الزريعة في الرواني حن عليها يا فواني⁽¹⁵⁾.

ومن الملاحظ أن الطقوس الممارسة في تونس لا تختلف عن نظيرتها في الجزائر، فالعروس مشتركة والقربان مشترك، وتحريك الملعقة يمينا ويسارا لإثارة الغبار ونزول المطر أيضا مشترك، وقد وجدت بعض الرسومات في الحضارة البابلية.

الشكل (01): رقصة استئزال المطر من حضارة سمراء



في بعض الأواني والأطباق الخزفية كما هو موضح في الصورة تظهر أربعة نساء متقابلات شعرن متناثر ومتطاير من اليسار إلى اليمين «ويشكل مظهر النسوة وشعورهن ما يشبه الصليب المعقوف أو رمز الخصب الأنثوي الذي تمثله المرأة، ويجسد هنا علاقة المرأة بالخصب توسلا بالمطر الذي هو أساس الزراعة في منطقة مثل سامراء التي تقع جنوب الخط المطري في وادي الرافدين»⁽¹⁶⁾.

ونستحضر في هذا المقام طريقة الرقص النسوة في العراق التراثية والتي تقوم على تقريب النسوة لشعورهن الطويلة وتحريكهن لها يمينا ويسارا، مما يمكننا من القول أن الرقص الشعبي الخاص بكل بلد أو منطقة من العالم له رموزه وخصائصه وتاريخه الضارب بجذوره في أعماق التاريخ السحيق.

ولا تختلف هذه الممارسات عن نظيرتها في المملكة المغربية «فني آيت سغروشن بالوسط المغربي تصنع الدمية من قمع فوق قضيب، ويغطى بغطاء الرأس وقلادة تحملها أثناء التطواف، وفي منطقة الريف بالمغرب الشمالي يتم إلباس مسحاة على شكل عروس تسمى (تاسريت أو نزار، وبإيقوين بنفس المنطقة تحمل الدمية إلى عين ماء، حيث تسقى من قبل أعضاء الموكب مرددين: يا ربي ارحمنا بغيثك، ويتم في النهاية تجريدتها من ثيابها وغرسها في ركام الأزيال حيث تظل حتى يبللها المطر»⁽¹⁷⁾.

وفي مناطق أخرى من الجزائر وبعد تطواف النسوة على البيوت لجمع ما تيسر من الخضر والدقيق لإعداد أشهى الأطباق التقليدية، أشهرها طبق الكسكسي يقوم الرجال بذبح خروفين أو ثلاثة مع الحفاظ على الأحشاء وتعليقها على قمم الأشجار، وقد كان في العصور البدائية الأولى وجه لهذه الممارسات، حيث تقدم الأضاحي البشرية أو الحيوانية وحتى النباتية قربانا للآلهة استرضاء لها ودعوا لأذاها «حيث سادت الأضاحي الحيوانية والنباتية (...) وكانت الذبائح الحيوانية تعلق على قمم الأشجار المثمرة من أكباش وعجول وغيرها لضمان غزارة إنتاجها»⁽¹⁸⁾.

وعلى مر العصور واختلاف الحضارات كانت الشعوب ولا زالت لها باع طويل في تقديم الأضاحي كقرايين للآلهة باعتبارها وسيطا بين عالم البشر السفلي وعالم الآلهة العلوي.

وختاما يمكن القول أن ممارسة مثل هذه الطقوس الضاربة بجذورها في أعماق الزمن والتاريخ لم تولد من فراغ، وإنما تحمل بين طيات رحمها بؤرة من الدلالات والمعاني والتأويلات التي لا يمكن القبض عليها.

3. خاتمة:

وفي الأخير يمكن أن نستنتج النقاط الآتية:

تعد طقوس استنزال المطر من الطقوس الهامة الممارسة في حياتنا اليومية، والتي لا تخرج عن دائرة عاداتنا وتقاليدينا.

لا تختلف جزئيات طقوس استسقاء أو استنزال المطر في منطقة شمال إفريقيا بل وفي العالم بأسره إلا في بعض العناصر كما أنها تؤدي مدلولاتها الكاملة.

إن لهذه الطقوس الممارسة في حياتنا اليومية مدلولاتها وارتباطاتها الثقافية والدينية والاجتماعية في التكافل ولم الشمل وإعانة الفقير والتقرب من المولى عز وجل بتقديم القرابين والأضاحي وإقامة الأسواق الاقتصادية وممارسة مختلف الألعاب الشعبية من ركوب الخيل والفروسية وأداء مختلف الأغاني الشعبية والمواويل التي تعبر بصدق عن مآسي الشعوب وآلامهم وآمالهم في الحياة.

على الرغم من التقدم الحضاري الذي يشهده العالم بأسره لا تزال ثنايا هذه الممارسات متجذرة في حياتنا اليومية وتمارس بصفة دورية.

تعود الأصول التاريخية لطقوس استنزال المطر إلى جذور العصر البدائي الذي تعرف فيه الإنسان الأول على الزراعة وعلى الأرض وعلى مختلف مظاهر الطبيعة فحاول التقرب منها بشتى الطرق خوفا ورهبة تارة ودروا لأذاها تارة أخرى ولأجل ذلك أنشأ مختلف الطقوس السحرية التي تساعده في فهم الطبيعة بمختلف مظاهرها واحتوائها.

تعد المرأة العنصر الأول الممارس لمختلف الطقوس والعادات والتقاليد كونها العنصر الفعال أيضا في الحياة، فهي رمز لاستمرار الحياة والنماء مثلها مثل المطر (الماء) وعلى شاكلة السحر التشاكلي فإن الشبيه ينتج الشبيه، فالطقوس والغبار واللون الأخضر والمرأة كلها عناصر خصب تنتج المطر الذي يمثل النماء والحياة.

4. قائمة المراجع:

المؤلفات:

- 1- حرز الله محمد العربي: تداول الألوان في الأدب الشعبي (الأدب الجزائري أمّوذجا)، طبع وزارة الثقافة، الجزائر، (د.ط).
- 2- سيغموند فرويد: الطوطم والتابو، تر: ياسين بوعلي، دار الحوار، سوريا، ط01، 1983.
- 3- روني باسيط: أبحاث في دين الأمازيغ، تر: همو شتار، نشر دفاتر وجهة نظر، المغرب، ط01، 2012.
- 4- سعيد حبيب: أديان العالم، نشر الكنيسة الأسقفية، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت).
- 5- الماجدي هزعل: «دراما استنزال المطر»، مجلة اللحظة الشعرية، لبنان، العدد 19، صيف 2010.
- 6- علي جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط02، 1993.
- 7- ابن منظور: لسان العرب، مادة (زرد)، ج 07، دار صادر لبنان.

المقالات:

- 8- منجية التومي: الزردة بين التحليل القبلي والتحریم الديني، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد 56، 2022.
- 9- صديقي محمد الناصر: المعتقدات الشعبية في مناطق السباسب التونسية، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد 22، صيف 2013.
- 10- الأزهر المجري: القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، المطبعة المغاربية، 2013.
- 11- خزعل الماجدي: «دراما استنزال المطر»، مجلة اللحظة الشعرية، لبنان، العدد 19، صيف 2010.
- 12- محمد أوسوس: طقوس الاستمطار الأمازيغية (البربرية) وأساطيرها بشمال إفريقيا، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد 14، صيف 2011.

المقابلات:

- 13- محرز خديجة: منطقة الكويف، تبسة في 18-02-2017، منطقة الكويف، ولاية تبسة، الجزائر.
- 14- جلال علجية، (25-01-2020)، منطقة الشريعة، ولاية تبسة، الجزائر.
- 15- رقية فطيمة (74 سنة)، منطقة بئر العاتر، ولاية تبسة، الجزائر.
- 16- عزوز عائشة: (15-04-2023) منطقة العوينات، ولاية تبسة، الجزائر.
- 17- فردي رمضان (86 سنة)، منطقة أم علي، ولاية تبسة، الجزائر.

المواقع الإلكترونية:

- 18- الإدريسي عبد الكريم: أسطورة العشق السماوي الأرضي، فعاليات وجمعيات المجتمع المدني

www.amaingle.com

- 19- زينة بلقاني: طقوس استئزال المطر والرقص في بلاد الرافدين، موقع batihka.com/theed، 10-2023-07
- 20- هاجر عبيدي: بين الدين والمعتقد، طقوس طلب المطر في تونس عبر التاريخ.
5. الهوامش:

- ¹ - ابن منظور: لسان العرب، مادة (زرد)، ج 07، دار صادر لبنان، ص 25، د ت.
- ² - منجية التومي: الزردة بين التحليل القبلي والتحرّم الديني، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد 56، 2022، ص 87.
- ³ - الأزهري: القبيلة الولائية والاستعمار أولاد سيدي عبيد والاستعمار الفرنسي في الجزائر وتونس، المطبعة المغاربية، 2013، ص 17.
- ⁴ - منجية التومي: الزردة بين التحليل القبلي والتحرّم الديني، مرجع سبق ذكره، ص 89.
- ⁵ - روني باسيط: أبحاث في دين الأمازيغ، تر: حمو شتار، نشر دفاتر وجهة نظر، المغرب، ط01، 2012، ص 19.
- ⁶ - جلال علجية: منطقة ثليجان، الشريعة، ولاية تبسة، السن سنة، تاريخ المقابلة 25-01-2020، 10:00 صباحا.
- ⁷ - محمد الناصر صديقي: المعتقدات الشعبية في مناطق السباسب التونسية، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد 22، صيف 2013، ص 85.
- ⁸ - سيغموند فرويد: الطوطم والتابو، تر: ياسين بوعلي، دار الحوار، سوريا، ط01، 1983، ص 97.
- ⁹ - حبيب سعيد: أديان العالم، نشر الكنيسة الأسقفية، القاهرة، مصر، (د.ط)، (د.ت)، ص 17.
- ¹⁰ - جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، ط02، 1993، ص (40-41).
- ¹¹ - هزعل الماجدي: «دراما استئزال المطر»، مجلة اللحظة الشعرية، لبنان، العدد 19، صيف 2010، ص 15.
- ¹² - الإدريسي عبد الكريم: أسطورة العشق السماوي الأرضي، فعاليات وجمعيات المجتمع المدني www.amaingle.com، 23-05-2016، 10:00 صباحا.
- ¹³ - محمد العربي حرز الله: تداول الألوان في الأدب الشعبي (الأدب الجزائري أنموذجا)، طبع وزارة الثقافة، الجزائر، (د.ط)، ص 10.
- ¹⁴ - فردي رمضان: منطقة أم علي، تبسة 86 سنة، 25-04-2017.
- ¹⁵ - هاجر عبيدي: بين الدين والمعتقد، طقوس طلب المطر في تونس عبر التاريخ 30-03-2023م، 14:00 مساء.
- ¹⁶ - زينة بلقاني: طقوس استئزال المطر والرقص في بلاد الرافدين، موقع batihka.com/theed، 10-2023-07، 10:00 صباحا.
- ¹⁷ - محمد أوسوس: طقوس الاستمطار الأمازيغية (البربرية) وأساطيرها بشمال إفريقيا، مجلة الثقافة الشعبية، البحرين، العدد 14، صيف 2011، ص 85.
- ¹⁸ - هزعل الماجدي: أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ، دار الشروق، عمان، الأردن، (د.ط)، 1997، ص 81.